أعلام الإصلاح في الجزائر (١٩٢١ ـ ١٩٧٥)

تأليف الأستاذ محمد علي دبوز

مطبعة البعث ـ قسنطينة ـ الجزائر ـ ١٩٧٦ ـ عدة الكتاب : ٢٧١ صفحة

الدكتور صفاء خلوصي

إنه لمما يملؤني سروراً أن يكون هذا الكتاب أول كتاب من الجزائر أقوم بمراجعته ، ولعله من أوائل الكتب المطبوعة في الجزائر طبعاً جميلاً أنيقاً ، فاقرؤه بلذة وشغف . إنه كتاب (أعلام الاصلاح في الجزائر خلال سني ١٩٢١ - ١٩٧٥) ويضم سير نخبة ممتازة من الأعلام المصلحين من أمثال الشيخ العربي بلقاسم التبسي ، وإبراهيم بن عمر بيّوض ، وإبراهيم الابريكي وعبد الله بن إبراهيم أبو العلاء ، والشيخ بابا يوسف ، وعمر بن يحيى ، وقاسم بن الحاج عيسى ، وعمر بن مسعود ، وعدّون بن الحاج ، وأبو اليقظان إبراهيم ، ومحمد إطفيّش ، مزداناً بنيف وستين صورة ضوئية .

ومؤلف الكتاب هو الأستاذ المحقق والأديب الأريب محمد علي دبّوز وقد سبق له أن أتحف المكتبة العربية بكتب لها أهميتها وخطورتها في عالم البحث والتأليف منها تاريخ المغرب الكبير في ثلاثة أجزاء ضخمة تضم ألفاً وستمائة وثلاثاً وثمانين صفحة من القطع الكبير ، ويتناول بالبحث والاستقصاء تاريخ ليبيا وتونس والجزائر والمغرب أي تاريخ المغرب بأكمله

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

بأقطاره الأربعة ، وقد خصّص الجزء الأول منه لتاريخ المغرب من العصر الحجري إلى الفتح الاسلامي ، والثاني للفتح الاسلامي وعهد بني أمية ،والثالث للعهد العباسي والدول المغربية المستقلة .

أما كتابه الثاني ، وهو (نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة) فهو الآخر في ثلاثة أجزاء تضم تسعمائة وستاً وتسعين صفحة من القطع الكبير أيضاً ، شرح فيه المؤلف عوامل النهضة الاسلاميـــة في الجزائر وأدوارها ونتائجها الخطيرة في كل دور من هذه الأدوار وقادتها وتاريخهم وما قدموه للشعب الجزائري من أسباب العزّة والمنعة ، وتطرّق كذلك إلى عوامل ضعف الجزائر وقهرها من لدن الاستعمار الغربيّ ، ثم انبعاثها من جديد واستقلالها ، والكتاب مثل كلّ كتب الأستاذ دبّوز موشّح بصور ضوئية تاريخية لزعماء النهضة الجزائرية المباركة ومظاهرها ومصادرها .

وكتابه الثالث (أعلام الاصلاح في الجزائر) والذي نحن بصدده لا يقل خطورة عن الكتابين السالفين ، وهو كما ينبىء عنه عنوانه يبحث في أعلام الإصلاح بين عامي ١٩٢١ و ١٩٧٥ وقد أهداه مؤلفه بكل جدارة واستحقاق إلى الشيخ أبي إسحاق إبراهيم اطفيش ، وباعتقادنا أن الكتاب جهد محمود مشكور ، وذلك لأن تاريخ الجزائر الحديث — كما يقول المؤلف الفاضل نفسه — من الاحتلال الفرنسي إلى الاستقلال ، ولا سيما تاريخ الاصلاح في الجزائر وأعلامه ، لم يدوّن قبل أن يتصدى المؤلف له ، إذ كان محفوفاً بمصاعب البحث والتقصي ، وأكثره ، إن لم يكن كله ، في ذاكرة المعاصرين وهم في أمصار نائية شتّى .

وقد روى الأستاذ البحاثة دبّوز تاريخ أعلام الاصلاح في الجنوب ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ثم عرّج على أعلام الاصلاح وتاريخهم في الشمال معتمداً في الدرجة الأولى على أقربائهم وأصدقائهم وتلامذتهم ، وإن ما وقع فيه من تناقض إنما كان نتيجة تقدم السن ببعضهم واختلاط الأحداث والأخبار لديهم ، وإننا لنؤيد الباحث الفاضل فيما ذهب إليه من أن تاريخ الجزائر الحديث من الاحتلال الفرنسي إلى الاستقلال إذا لم يكتب فيما بقي من العقد الذي نحن فيه للقرن العشرين ، فمآله مع الأسف الشديد ، إلى الضياع لا محالة ، وذلك بوفاة مصادره أو عجزهم وتقدمهم في السن .

وممن يتحدث عنهم الأستاذ محمد علي دبّوز في سلسلة أعلام الاصلاح الشيخ العربي بن بلقاسم التبسّي ، ويَهْتَبِلُ الفرصة السانحة للتطرق إلى مآثر الغرب الجزائري ومزاياه الكثيرة فيقول : « إن الغرب الجزائري في مطلع القرن الرابع عشر للهجرة لم يكن مستعداً للنهضة كشرقه ، ولئن ازدهرت النهضة في مدينة قسنطينة وأطرافها أكثر فسبقت الغرب ببعض أمور ، فإن ذلك لأسباب تورث الغرب الجزائري فخراً وتومىء إلى مزاياه ، ولقد كانت الأعباء التي نهض بها الغرب الجزائري من القرن الثاني حتى آخر الثالث عشر أكثر مما حمله الشرق فكان إعياؤه أكثر ونومه أطول ، وقيود المستعمرين عليه أشدّ .

لقد قامت في الغرب الجزائري ثورات كبرى على مراكز الخلافة الأموية والعباسية بدوافع مختلفة واجتهادات مما أدى إلى قيام عدد من الدول: الدولة الرستمية العظيمة التي سارت سيرة الخلفاء الراشدين ، وذلك في القرن الثاني للهجرة ، وحمل جزء من هذه المنطقة أعباء الدولة الإدريسية ، وصار في القرن الخامس الهجري جزءاً من دولة المرابطين ثم من دولة الموحدين ثم نشأت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فيه دولة بني عبد الواد وبني زيّان في القرن السابع للهجرة ، فكانت عاصمتها تلمسان ، ودخلت في صراع مع دولة بني مَرين ، وفي القرن العاشر الهجري أصيبت الجزائر والمغرب بالاسبان فاستهدفوا « وهران » وشواطئه واحتلوا المرسى الكبير في « وهران » فقارعتهم الجزائر والمغرب أعنف قراع وجالدتهم أشدّ جلاد ، ثم حصل جهاد الأمير عبد القادر الجزائري فكانت قواعده في الغرب الجزائري ، ثم وقعت ثورة أولاد سيدي الشيخ الكبرى على المستعمرين وكانت قاعدتها في الغرب الجزائري ، وبعد أن استولى عليه الاستعمار الغربي الغاشم نكل بعلمائه وقادته وزعمائه وهاجر الكثير منهم إلى المشرق العربي ، فغط في نوم عميق ردحاً من الزمن إلى أن قيض الله له من أيقظه من سباته وأعاده سيرته الأولى إلى صراعه وجهاده وجلاده .

وتطغى على الكتاب كله نزعة إسلامية قوية مباركة ، ويشير الأستاذ دبّوز إلى ثورة الجزائر الجبارة العارمة التي غيرت وجه التاريخ ، وكيف أن مدينة قسنطينة أصبحت سنة ١٩٥٦ من مراكزها العظيمة الكبرى .

ويعتبر الأستاذ المؤلف أعلام الاصلاح في الجزائر كلهم أبناء القرآن في خلقهم وألسنتهم وأقلامهم فالقرآن والحديث الشريف هما اللذان قوّما ألسنتهم وأورثاهم العبقرية وغاية النبوغ .

ومما يذكره عن الشيخ العربي أنه كان ، كأكثر دعاة الاصلاح في العالم العربي ، مسجدياً تربّى في حجر المسجد في مراحل دراسته وكان ميدان عمله في عهود جهاده .

ومن رائع ما يروى عن الشيخ العربي أن القائد الشهيد عميروش

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أرسل إليه رسوله وهو في الجزائر العاصمة يسأله وصية يتبعها في جهاده ، فلم يجد الشيخ العربي وقتاً لكتابة الوصية وخاف التفتيش الشديد فسلّم لرسول القائد عميروش مصحفاً صغيراً قائلاً له : « بلغه سلامي ودعواتي وابتهاجي العظيم بجهادهم وانتصارهم ، وقل له : هذا المصحف الشريف هو وصيتي له » .

ويذكر العلاّمة الفاضل ديبّوز في كتابه شيئاً من أدب الطلبة مع مشايخهم والعامة من العلماء والعزّابة وإجلالهم ، فإذا تحدثوا إليهم بدؤوا كلامهم بالدعاء لهم ، ويمزجون بـه حديثهم إليهم فمن ذلك قولهم باللهجة الجزائرية (ابارك فيك) أي بارك الله فيك .

ويحدثنا كذلك عن تنافس طلبة العلم في حفظ القرآن واستظهاره ، وعن الشعار الرائع : « إن العلم سلاح لا يجوز أن يكون إلا في الأيدي الطاهرة والنفوس التي تنفـع به ولا تضر ، ويكون بها نوراً لا ناراً » . ويذكرنا هؤلاء العلماء الذين يسعدنا أن نعاصرهم بالأوائل من علمائنا الذين كانوا إلى جنب عكوفهم على العلم يعتمدون على أنفسهم في المعاش ، فالتعليم عندهم عبادة ، ولمَ لا يكون كذلك وقد جاء في التعاليم الاسلامية أنك كلما ازددت علماً ازددت قرباً من الجنة ، ولذلك كان علماؤنا يحرصون على فهم مغاليق العلم حتّى وهم على فراش الموت وفي ساعات الاحتضار ، وقد رُوِيَ العديدُ من القصص عمّن شُرحت له قضية نحوية أو فقهية وهو قاب قوسين من الموت أو أدنى ، ولا يكاد الشارح ينهي شرحه حتى يلفظ عاشق العلم المحتضر أنفاسه .

لذلك نجد العزّابة والمعلمين في وادي (ميزاب) بالجزائر يقومون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بعملهم الجادّ الدائب في المساجد والكتاتيب والمعاهد الحرة ويرون ذلك عبادة عظمى وأجرهم فيها على الله ، لا يتقاضون أي أجر مادي بل يرفضونه لان ما يقومون به عبادة خالصة لوجه الله ، فالعزّابة والمعلمون كلهم يعتمدون على أنفسهم في المعاش ، إذ يخرجون بعد أداء أعمالهم التعليمية إلى أعمالهم الأخرى المعاشيّة ، يمنحونها مايستطيعون من وقتهم فيخرج العزّابي إلى حقله أو متجره ، فيعمل بكل جد ونشاط إلى أن يحين وقت المسجد فيهرع إليه بلذةٍ وشوق .

ويطّلع القارىء من خلال دراسته للكتاب على المعاهد والمؤسسات الثقافية في الجزائر ، فيهوله تعددها وكثرة انتشارها رغم طول أمد الاستعمار الفرنسي لهذه الديار ، وهي تحت أسماء شتّى ، فهناك فضلاً عن المساجد التي هي قواعد راسخة للعلم والبحث والثقافة في مختلف أقطار العالم الاسلامي وأمصاره منذ نشأة الاسلام الأولى ، أقول هناك عدا المساجد جمعية العلماء ومعهد الشيخ إبراهيم الابريكي ومعهد الحياة وغير ذلك كثير ، ومعهد الشيخ الابريكي لتحفيظ القرآن وتدريس العلوم لايقبل فيه المبتدئون ، بل الذين يعرفون القراءة ، وتقدموا في حفظ القرآن ، ولهم استعداد عقليّ خاصّ . أما معهد الحياة فقد انشيء عام ١٩٢٥ فأقبلت إليه البعوث العلمية من مدن (ميزاب) وسواها ، وهو معهد عظيم حقاً كوّن للجزائر والمغرب بل وللعالم الاسلامي أجيالاً من المثقفين المصلحين من بناة النهضة وجنود الثورة الجزائرية وكان قطب الرحى فيه العلامة الجليل الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض .

وبعد فالأستاذ البحاثة محمد علي دبّوز أفضل الشكر وأسناه على جهده ومسعاه لما ضمن كتابه الفذّ (أعلام الإصلاح في الجزائر) من قيّم المعلومات مما يجعل كل عربي يتوق شوقاً إلى إخوان له في الجزائر يفيضون علماً وموهبة .

اكسفورد د . صفاء خلوصي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net